عبد الله النديم لسان الحزب الوطني

طارق أحمد آهنغر*

ترجع نهضة الأمم والدول الى الجهود المصلحين من أبنائها الذين يسعون دائما الى توحيد أبناء الأمة، وإيقاظ وعيهم بقضايا ومشكلات أمتهم، وتحريك همتهم نحو الإصلاح والتجديد، ووقوفهم صفا واحدا في وجه أطماع المستعمرين والمستبدّين. وفي أواسط القرن التاسع عشر قام رجال مصلحون من ابناء الأمة العربية الأسلامية، وحذروا ملوكهم وشعبهم من الخطر الوشيك الذي يتربص بالأمة الاسلامية، وتعالت أصواتهم بالدعوة الي التعجيل بالإصلاح قبل وقوع الخطر، وكان من هولاء الرواد عبد الله نديم المصري الذي دعا الى الحرية والاستقلال من الملوك المستبدين وخدام القوات الأجنبية في مصر وجهد كل جهوده في تحقيق الأهداف المنشودة وأيدها بلسانه وقلمه.

عبد الله النديم مولده ونشأته

ولد في مدينة الإسكندرية يوم ١٠ ديسمبر عام ١٨٤٥م/١٢٦١ هـ[١] فى أسرة متوسطة الحال، كان والده من الشرق ثم رحل الي الاسكندرية وعمل فيها نجارا لسفن ولم يطمئنّ به فاتخذ مخبزا صغيرا حيث يصنع الخبز ثم يبيعها ويحصل به قوتا للعيش،[٢] وقد لمح أبوه علامات نبوغه فأرسله الى الكتّاب كما

* الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير، سرينغر.

يفعل الناس من مثل طبقته، ثم تفوّق عبد الله في الكتّاب وظهرت عليه ملامح الزكاء فأراد أن يستمرّ في تعلّمه ولم يمنعه أبوه رغم ضيق العيش وفقره، فالتحق بمسجد الشيخ إبراهيم باشا وهو صورة مصغرة من الأزهر، يدرّس فيه المشائخ ما يُدّرس في الأزهر منهجا ونمطا، فتلقى النديم العلوم الدينية لكنّه وجد نفسه لم ترغب اليها بل مال الى الفنون الأدبية التي لا تعتبر وقتئذ فنا وعلما، وإنما تُعدّ هواية كذي الصوت الجميل يهوى الغناء ويقلّد فيه من سبقه، لا درس ولا فن، مثل ما ينظر اليه من أهل العلم بالنحو والفقه نظرة استخفاف وازدراء[٣]. ورغم ذلك اهتمّ النديم بفنون الأدب ونبغ فيها فبرع فى الكتابة والشعر والزجل وامتاز فى المناظرات المرتجلة واشتهر بروحه الساخرة، وكان يغشى هذه المجالس الأدبية التي ليس لها منهج، فيسمع شعر الشاعرين وزجل الزجالين، ونوادر المتماجنين، وقصائد الراوين، فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير في هذا الطريق، وقد منح حافظة لاقطة، وقدرة على التقليد فائقة، فأخذ يحاكي بعدما اختزن، كما وصفه أستاذ أحمد أمين قائلا: رسم ذلك كله في نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقلة، والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار، وهفهفة الأغصان، ودبيب النمال، وحلاوة البسمات، وأدق مجالى الجمال والقبح، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه.[٤]

جاء النديم الى القاهرة وشارك في المجالس الأدبية التي كانت تنعقد فيها، وشارك فيها شعراء مصر وأدباءها مثل محمود

سامي البارودي، وعبد الله فكري، والسيد على أبو النصر، ومحمود صفوت الساعاتي، والشيخ أحمد الزرقاني، ومحمد بك سعد بن جعفر وغيرهم. فتوثقت الصلة بينهم وبين نديم صلة موثوقة. وكذلك انضمّ مع محمود السامي البارودي لمطالب العرابيين.

اشترك عبد الله النديم في الثورة العرابية عام ١٨٨١ م بقلمه ولسانه، وأصدر مجلة 'التنكيت والتبكيت' لمؤازرة الثورة العرابية، فأصدر عددها الأول بتاريخ ٦ يونيو ١٨٨١ م وعددها الأخير بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٨٨١م. ثم وأصدر مجلة 'الطائف'، لسان حال الثورة. وانضم إلي أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي في معركة التل الكبير ضد الجيش البريطاني في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ° والتي انتهت بهزيمة العرابيين.

وبعد فشل الثورة العرابية ودخول الإنجليز مصر، قُبض على كل زعماء الثورة فيما عدا عبد الله النديم الذي اختفى عن الأنظار تماما أكثر من تسع سنوات متصلة من سبتمبر ١٨٨٢م إلى نوفمبر ١٨٩١م. اختفي عبد الله النديم ، وحُكم عليه غيابياً بالنفي، ورصدت سلطات الاحتلال والخديو توفيق ١٠٠٠ جنيه لمن يرشد عنه. ولكن الأهالي والشرطة تستروا عليه وأخفوه في بيوتهم عن سلطات الاحتلال. فهو في نظرهم الثائر البطل الذي تصدي بقلمه لخيانة توفيق وديكتاتوريته وظلم الاحتلال وجبروته.

كان عبد الله النديم بارعاً في التخفى وانتحاله بشخصيات كثيرة وظلّ مختفياً لمدة تسع سنوات، حتي قبض عليه عام ١٨٩١ م في إحدى قرى محافظة الغربية. وأمر الخديو توفيق بنفيه،

فاختار "يافا" لقربها من بيت المقدس. وظل بها عدة أشهر حتى توفي الخديو توفيق، وخلفه الخديو عباس الثاني الذي أصدر عفواً عن النديم عام ١٨٩٢ م وأطلق على أن يخرج من مصر، فبرحها إلى فلسطين وأقام في يافا، وسمح له بالعودة إلى بلاده فعاد واستوطن القاهرة، ولكن النديم لم يركن إلي السكون بعد عودته، فعاد يدعو الناس إلي مقاومة الاستعمار وتوحيد الأقطار الإسلامية والشرقية ضد المستعمر الأجنبي. فأصدر الخديو أمراً بنفيه مجدداً خارج مصر فخرج إلى يافا، ثم إلى الأستانة فاستخدم في ديوان المعارف مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي حيث انشغل فيه الى عدة السنوات، ويجدر بالذكر أنه التقى فيها بجمال الدين الأفغاني وبقى معه، حتى توفي عام (١٣١٤ هـ/١٨٩٦).

عبد الله النديم وجمال الدين الأفغاني

جاء مصر مصلح عظيم جمال الدين الأفغاني وانضم بحلقات دروسه كثير من الطلبة المصريين بما فيهم عبد الله النديم، فرأى في شخصية 'الأفغاني' الدنيا التي حجبتها عنه طبيعة الدراسة في المدارس التقليدية، فكان يستمتع بالدروس التي كان يلقيها في داره ويعمل على نشر أفكاره. ولا شك أنه استفاد الكثير من جمال الدين الأفغاني بآرائه وأفكاره المتقدمة وكان من أهمها:

١. الدفاع عن الإنسان بصفة اسمى المخلوقات، وتوعية بوظيفته الاجتماعية، وتبصيره بمشغولياته إزاء نفسه وغيره.
٢. الدعوة إلى تحكيم العقل بصفته أعلى ما عند الإنسان من صفات وخصه بالتزوّد بالمعارف والعلوم.

٣. مقاومة الاستبداد بصفته معطلا لحركة الإنسان علـــى الأرض لملكات العقل.
٤. رفض التدخل الأجنبي في جميع أشكاله.
٥. الإيمان بضـــروره الوحـــدة الإســـلامية، ومحاربـــة التفـــرق والتعصب والعمل على قيام الجامعة الإسلامية.[٦]

هذه كانت دعوة جمال الدين الأفغاني لكل تلميذ يتلمّذ عليه، وهذه كانت دعوته لتلاميذه في مصر الّذين آمنوا بها وأصبحوا دعاة التنوير مثل الشيخ محمد عبد الله النديم، سعد زغلول، محمود سامي البارودي، إبراهيم المويلحي، حقي ناصف، أديب اسحاق وغيرهم.[٧] وكان عبد الله النديم والشيخ ممحد عبده من أعلام المحققين والعلماء المجتهدين اصطفاهما الله من خلقه لنصرة دينه وخلقه. وإنهما جددا حبل الدين وشيدا اركان العلم ودفعا الفساد عن الأرض.[٨] لقد تلمذا على أيدي الأفغاني معا خلال قيامه في مصر وتشربا الروح الوطنية والدينة منه، وتأثرا من معظم أفكاره وآرائه، وحاربا ضد الإنجليز والفساد في المجتمع المصري وقاما باصلاح شؤونها الدينية والاجتماعية معا، كما أنشئا الجرائد والمجلات والصحف لهذا الغرض.[٩]

عبد الله النديم والثورة العرابية:

عانت مصر في أواخر حكم إسماعيل من سوء الأحوال المالية والاقتصادية، حيث بلغت ديون مصر في نهاية عهده (٩١) مليون جنيها مما أدّى إلي التدخل الأجنبي في شئون مصر الداخلية وانتهي الأمر بعزله سنة ١٨٧٩/م[١٠]. وتولى الخديو توفيق الحكم

١٢٩٧-١٣١٠هـ، ولكن كان ضعيف الشخصية متخاذلا عديم الهمة، مستسلما للنفوذ الأجنبي، وقد عاد التسلط الاستعماري في زمنه الى سابق عهده من التحرك وتهديد سلامة البلاد. وقاسي الشعب المصري من الاستبداد الداخلي الذي وضع مقاليد الحكم في يد الشراكسة وحول الشعب المصري في وطنه إلي مواطنين من الدرجة الثانية لا يستطيعون التصدي للزحف الأجنبي والنهوض بالبلاد كي تدخل فعلا عصر النهضة والبعث والتنوير.

ونتيجة لذلك انبعثت في مصر اتجاهات إصلاحية كانت تهدف إلى الارتقاء بالبلاد وتجديد حياتها وتحرير طاقتها، غير أنها اختلفت في سبيل تحقيق هذا الهدف، وانقسمت بصدد ذلك إلاتجاهين، وهما الاتجاه الاصلاحي والتجاه الثوري -

فالاتجاه الاصلاحي يزعمه الشيخ محمد عبده، فقد رأي أن النهوض بالأمة يجب أن يتم بأسلوب التربية والإصلاح الاجتماعي بدلا من طرق الثورة والنضال ، وأنه ينبغي تثقيف الشعب وتنوير قبل أن يطالب بالثورة والحياة النيابية، فلم يتكون في الأمة الرأي العام الذي يجعلها أهلا للحكم الدستوري النيابي، وليس من الحكمة أن تعطي الرعية ما لم تستعد له، فذلك بمثابة تمكين للقاصر من التصوف بماله قبل بلوغه سن الرشد فمن نريد خير البلاء فلا يسعي إلا في اتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه.[١١]

وأما الاتجاه الآخر فهو الثوري الذي يزعمه 'جمال الدين الأفغاني' كان يرى أن الأخذ بالحكومة الثورية والحياة النيابية الدستورية هو الوسيلة الأجدى والأفعل في بلوغ هذه الغاية، وأن

أساليب النضال والثورة هي الأساليب الناجحة لتحقيق هذا الهدف، وكان من أنصار هذا الاتجاه الحزب الوطني الحر صاحب شعار ''مصر للمصريين لا للأتراك والشراكسة' كما سار على مبادئ هذا الاتجاه ضبّاط الجيش المصري وقادته الذين قاموا بالثورة العرابية سنة ١٨٨١، وكان لسانهم الناطق عبد الله النديم.[١٢]

انظمّ عبد الله النديم الى الحزب الوطني منذ نشأته قبيل عزل الخديو اسماعيل ولم يكن الحزب الوطني الذي أسسه جمال الدين الافغاني كحزب سياسي آخر وانما كان في الحقيقة هيئة واحدة شاملة للحركة الوطنية في جملتها وهو حزب المصريين الفلاحين الذين كان شعارهم "مصر للمصريين" وكانت أهدافها :

١. رفع المظالم عن أبناء البلاد ومحاربة الفساد والاسراف في دواوين الحكومة.
٢. مصير حكم البلاد الى ايدي ابنائها الذين أصابهم الظلم من حكم العثمانين.
٣. منع التدخل الأجنبي الذي جرت اليه سياسة البزخ والاسراف وسياسة الديون في عهد اسماعيل على الخصوص.
٤. تنظيم إدارة الحكم والتوفيق بين مقاصد الحكام ومقاصد الرعية.[١٣]

خلفية الثورة

وأدرك الناهبون من الشعب المصري ما يراد بوطنهم من شر، فاضطرمت في نفوسهم عوامل الحقد على الوضع القائم، وازداد شعورهم بحقوقهم واستعدادهم للمطالبة بها، ولا سيما أن

الرأي العام المصري كان قد تكون في أواخر عهد اسماعيل، وقد ساعد تكوينه رؤية الحقد الصليبي عند الأوربيين وانتشار التعليم، والصحف اليومية بين الاهالي فأدركوا ما للشعب من حقوق. هذا إلي وجود زعماء مثل الشيخ جمال الدين الافغاني، والشيخ محمد عبده اللذان اتصلا بالشعب عن طريق التدريس والصحف، وبدآ ينشران تعليمها عن الحركة الدستورية ومكافحة الاستعمار فقبلها الكثير من أبناء الشعب. كل هذه العوامل التي ذكرناها كانت مقدمات للثورة العرابية. غير أن السبب المباشر للثورة يعود الي اضطهاد الضباط المصريين في الجيش والتمييز بينهم وبين غيرهم من الضباط الأجانب، وقصر الترقيات على الضباط الأجانب والدخلاء دون المصريين وإنقاص عدد الجيش وعدم انتظام دفع رواتب أفراده، وأثار ذلك حنق رجال الجيش واستياءهم من إهمال الحكومة واضطهادها للأحرار، فتجاوبت نفوسهم ومشاعرهم مع مشاعر الشعب فكانت بداية الثورة العرابية.

وفي ٩ سبتمبر ١٨٨١ م نظم الضباط والجيش مظاهرة رافقتها جماهير الشعب على الجانبين، وسارت إلي قصر عابدين تقدم أحمد عرابي من الخديوي مطالبا إياه بإقالة الوزارة، وإعادة الحياة الدستورية، والدعوة الى انتخاب مجلس نيابي جديد، وزيادة عدد أفراد الجيش، كما نصت عليه المراسيم السلطانية(١٨ ألف جندي) فردّ الخديوي ردّا جافا قاسيا مهينا حينما قال: " ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا ولا حق لكم بهذا المطالب" فأجابه عرابي على الفور: "متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، نحن لسنا

عبيدا ولن نورث بعد اليوم"[١٤] وأعلن عرابي أنه لن يغادر المكان حتى تجاب مطالب الشعب، فاضطر الخديوي إلى الاتفاق مع العرابيين ولكن الإنجلترا وفرنسا عارضتا ذلك، وعملت إنكلترا على إثارة الفتن والقلاقل في مصر لكي لا تفلت مصر من يدها، وأرسلت الإنجلترا وفرنسا أسطوليهما إلى مياه الاسكندرية دعما للخديوي ضد الحركة الوطنية، وإبعاد عرابي ونفي الضباط الأحرار الى الأرياف , وقد استجاب الخديوي لهما، وإذا عرفه عرابي أعلن الثورة على الخديوي وبينا قصفت المدفعية البريطانية مدينة الاسكندرية وقاوم الشعب في مصر مقاومة باسلة، غير أن الانكليز تمكنّوا من التغلب على المصريين واحتلّوا المدينة، وغلبت على عرابي وجيشه في معركة غير متكافئة في الاستعدادات الحربية، فهكذا بدأت الاحتلال البريطاني في مصر واستمر قرابة خمسة وسبعين عاما.[١٥]

عبد الله النديم لسان الحزب الوطني

ولما رجع عبد الله النديم الى مسقط رأسه الاسكندرية، بدأت مرحلة جديدة في حياته وهي "الجهاد السياسي" ففي أثناءها انضم الي جمعية "مصر الفتاة " واتّصل بعدد من رجال الأدب والسياسة، منهم أديب إسحاق وسليم نقّاش، كانا يصدران جريدتي " مصر" و"التجارة'' فعيناه محرّرا مساعدا فيهما وهناك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه في هذا السبيل أن يجتمع بأصدقائه المخلصين محمد آفندي، أمين باشا وكاتب محمود وآصف آفندي، وكان النديم يعلم أن "مصر الفتاة" جمعية سريّة يخشى كل من

تبعها بإيقاف من الحكومة، فلم يجد بدا أن ينتسب الى جمعية علمية "الجمعية الخيرية الاسلامية "عام ١٨٧٨م. كانت أول جمعية اسلامية أسست في القطر المصري ينفث روح السياسة في الشعب[١٦]، وخلال هذه الفترة ألّف روايتين '' الوطن'' و''العرب'' وكشف فيهما عن الظلم والفساد الاجتماعي ورسم صورة لمفاخر الآباء ومآثر الأجداد وقابل بين السيادة السابقة والعبودية اللاحقة،[١٧] وبعد ذلك فصل نفسه عن الجمعية الخيرية وأقيل من إدارتها وترك أيضا أمر جريدتي "المحروسة" و"العصر الجديد".

أنشأ مجلة 'التنكيت والتبكيت' وهي جريدة أسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد[١٨] صدر أول عددها في ٦ يونيو ١٨٨١ م كما مرّ ذكره آنفا. ولما وقعت الثورة حقيقية حتى تغلق مجلّته "التنكيت والتبكيت" التى أسّسها في الإسكندرية، فعاد النديم الى القاهرة يصدر فيها مجلة أخرى يختار لها عرابي اسم "الطائف" ويندمج ابن البلد بسرعة شديدة في بيئة الثورة، وتتوفّق صلته بزعمائها فلا يلبث أن يصبح لسانها الناطق وأن يحمل لقبه التاريخي"خطيب الثورة"[١٩] وهو يصوّر في "الطائف" عيوب المجتمع المصري تصويرا رائعا. وبلغت شهرتها مالم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الأذهان وبدأ فيها تنقد بصرفات الخديو اسمعيل في جرأة بالغة وتشرح بؤس الفلاحين في السخرة والعذاب المهين الذي يلقونه من الروساء ونعبر عن آراء النواب في ضرورة الاصلاح عن طريق الحكم النيابي،[٢٠] وكان مضمون

كتابته استنهاض همة أبناء الوطن للارتفاع بشأن البلاد، هذا الوطني الثائر هو الذي حيّر رجال الشرطة والانجليز، وهو الذي اجتاز العقول وقلوب الناس فأضحكهم وأبكاهم، وهو القائل بأن مصر للمصريين.

فلم يقتصر دور عبد الله النديم خلال الثورة على الدعوة الصحفية فقد استحق لقب خطيب الثورة عن جدارة واستحقاق، فقد كان خطيبا مفوّها أوتي القدرة على إلهاب الجماهير. وفي وصف ذلك يقول أحمد أمين في كتابه " زعماء الاصلاح" طاف في كل مجتمع يخطب وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب، فما هو الا أن يحرك لسانه حتى يتدفق وينهال عليه المعاني والألفاظ انهيالا، وقد نشر فنّ الخطابة وعلم الكثير من الناشئة أن يخطبوا في المحافل، وأعطى لهم المثل بقدرته وكفايته"[٢١].

وأصبح "الطائف" في الثورة العرابية لسان الدعاية لها، حينما قامت الثورة تحت رئاسة عرابي باشا فوجد الثوار أنفسهم في حاجة الى خطيب ذلق اللسان حاضر البديهة جياش العاطفة مصري غيور على وطنه يكون لسانهم الناطق وداعيتهم المحبوب فلم يجدوا خيرا من عبد الله النديم، فأصبح خطيب الثورة وكاتبها ومشعلها ونال شهرة واسعة في المصريين وبعد أن انطفأت جمرة الثورة احتل الانجليز مصر.

والحق أن عبدالله النديم لم يحترف الأدب فى بداية حياته العلمية لكنه لما شارك في المحافل الأدبية والخطابية التي تتحدث عن الحالة السياسية المصرية وعن ظلم المستبدين والقوات الأجانب

على الفلاحين والبائسين حتي يعيشون في الفقر والضيق والخديوي كان يصرف الاموال الطائلة على الترف والبزخ ويقترض الديون من الأجانب بدلا من مصلحة الشعب ورخاءهم. فتأثر بهذا المناخ السياسي والاحتماعي الذي دفعه الى الصحافة والخطابة والأدب حتى أصبح المبدع والأديب والخطيب الثائر أثار الشعب المصري ضد الانجليز فكلماته ألهبت حمّاس الجماهير. وأعماله العديدة القيمة قد نشرت في البلاد العربية المختلفة والتي تدل دلالة واضحة علي عمق فكره ورجاحة عقله وفكرته المديدة عن مستقبل الأمة الاسلامية والعربية.

الهوامش:

١. شيخولويس، تاريخ الآدب العربية، ص:٢٠٧
٢. أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٢٠٣
٣. أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٢٠٤
٤. نفس المرجع، ص:٢٠٥
٥. صبري محمد، تاريخ عصر الحديث مصر، من محمد على الى اليوم، مطبعة نهضة المصر، ط:٢، ص:٢٤٧
٦. فرح، مايز، شخصيات مصرية وأفكار عصرية، دار الشعب، القاهرة، مصر، ص:٣١-٣٢
٧. أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٢٩٢
٨. سليم، محمد، القيم الاجتماعية في مصر والهند، كتاب دنيا، دلهي، ط:٢ ص:٤٩

٩. نفس المرجع، ص:٥١
١٠. الرافعي، عبد الرحمن، عصر إسماعيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط:٢ ١٩٤٨، ص:٦٢٩
١١. محمد حسين محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٠، ص:٢٣٤
١٢. محمد عمارة، دراسة في الفكر السياسي والاجتماعي للإمام محمد عبده، الكتابات السياسية، بيروت، ١٩٧٦، ج: ١، ص:٤١.
١٣. العقاد، عباس محمود، التراجم والسير ط: ١، دار المعارف ، مصر، ١٩٩٢م، ص:١١٣
١٤. ياغي، إسماعيل أحمد، وشاكر، محمد، تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، المملكة السعودية، ١٩٩٣ ج:٢ ص:٢٧
١٥. نفس المرجع، ص:٢٨
١٦. عبد الكريم، أحمد عزت، تايخ التعليم في عصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨، ص:٨١
١٧. الجندي، أنور، أعلام وأصحاب وأقلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ص:٣٠
١٨. أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٢٢٣
١٩. أحمد، زكي صلاح، اعلام النهضة العربية الاسلامية في العصر الحديث، الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠١، ص:٥٩
٢٠. سليم، محمد، القيم الاجتماعية في مصر والهند، كتاب دنيا، دلهي، ط:٢ ص:١١١
٢١. أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٢٢٤